

جيش الخلاص

لحاضرة صاحب السعادة توفيق دوس باشا

”جيش الخلاص“ هيئة دينية مسيحية نشأت في إنجلترا عام ١٨٦٥ ، ولكنها ما زالت نحو إلى أن انتشرت في أقطار العالم كله تقريبا ، فلا يكاد يخلو منها قطر في القارات الخمس . ولم يؤسس هذا الجيش كنيسة ولم يدع إلى عقيدة معينة في الدين يستطيع أن يتميز بها من سائر الجماعات المسيحية . ولكنه امتاز بشيء واحد هو إعلان الحرب على الرذيلة . وهي حرب بكل معاني هذه الكلمة لا يتقصها غير السلاح المادى . ولكن السلاح الروحى أقوى أحيانا من السلاح المادى . وهذا السلاح لم يتقصه يوما من الأيام .

ونحن نكتب هذا المقال لكى تنبه الأذهان في مصر إلى المعنى والمغزى من الدين ، كما فهمهما قسيس إنجليزى دو وليم بوث . فان هذا الرجل الذى ولد عام ١٨٢٠ وتوفى عام ١٩١٢ كان يستطيع أن يعيش مثل سائر القسيسين في إحدى الكنائس يؤدي الخدمة الدينية أيام الآحاد والأعياد ، وكان في وسعه أن يجد العيش الرغيد والحياة الوادعة والأمن والطمأنينة ولكنه لم يفعل ذلك ، بل أثار حياة الجهاد لمكافة الرذيلة . فقد هالته كثرة الجرائم في الأحياء الفقيرة في لندن ونفثى الرذائل بين الثغراء ، والانغماس في الخمر وما تجلبه من أذى الصحة والأخلاق . فقصد عام ١٨٦٥ إلى هذه الأحياء وهناك أعلن الحرب على جميع المفساد . وكانت هذه الحرب خالية من العنف والبطش . ولكنها كانت مع ذلك حربا لأن ”القسيس“ وليم بوث نزل عن لقبه الكهنوتى وسمى نفسه ”جنرالاً“ ثم نظم جمعيته على غرار الجيوش فصارت هى أيضا ”جيشا“ له ضباط بالرتب المختلفة في الجيش ، بل صار لكل ضابط وكل جندى شكله الرسمية وأوسمته وألقابه . وهذا الجيش مؤلف من الرجال والنساء الذين يتصدون إلى المنزل والشارع والحانة والمتجر والمصنع ، ثم يقنعون كل فرد بأنه يجب أن ”يخلص“ نفسه بالاقلاع عن الرذيلة . فلا خمر ولا تدخين ولا أى نوع من أنواع الغواية الأخرى . وكانوا يدعون الناس ويخرجون بهم إلى حيث يجتمعون خارج المدن ، وهناك يخطبهم الجنرال أو أحد ضباطه ويزين لهم حياة الصلاح والبر ويأخذ عليهم الموائيق للاقلاع عن المفساد التى تعلموها . ولكل فرقة من الجيش جوقتها الموسيقية التى تفرى بألحانها وبراعة موقعها جمهورا

كثيرا من الناس بحضور الاجتماعات حتى ولو لم تكن لهم رغبة في الاستماع إلى الخطباء. ولقد بلغ من نشاط "جيش الخلاص" أن صار عدد اجتماعاته الأسبوعية يزيد على أربعين ألفا . وكانت له عام ١٩٢٠ فروع في ٧٣ مملكة ، وله مجلات ومؤلفات تكتب بنحسين لغة .

وكما أن الجيش في الحرب تتألف منه الفرق المختلفة ويختص كل منها بحرب معينة، وأسلحة خاصة ، كذلك فعل الجنرال بوث هو وسائر قواده وضباطه فإنه نظم جيشه فرقا . لجنود هذه الفرقه مثلا قد تخصصوا في مكافحة الخمر، وآخرون قد اختصوا بخدمة المسجونين الذين يفرج عنهم ، وآخرون يزورون العائلات لتقديم النصائح والارشادات ، وآخرون ينقذون النساء والأطفال من مهاوى الرذيلة ، بل هناك فرق تألفت لمكافحة التعطل قبل أن تنكر الحكومة البريطانية في إعانات التعطل . ونحن نشرح فيما يلي هذا النشاط الذي يجب أن نذكر أن الباعث عليه هو الدين . فإن مؤسس هذا الجيش وقائده كان قسيسا أدرك أن الدين لا يقتصر على إنشاء الكنائس وإقامة الصلاة فيها، بل إنه يجب أن يكون كفاحا عمليا للرذيلة والجريمة والفقير والحاجة . وكثيرا ما أتبع لبعض المصريين أن يروا في لندن هذا القائد المديد القامة الذي بلغ التسعين من عمره، وقد أسبل لحية البيضاء بعد إذ حته الستون وهو يخطف في بحه خفيفة، ولكن في جلاء واضح . وكان المجتمعون لا يقلون عن خمسة آلاف نفس من الجمهور قد تفرق بينهم الضباط والجنود من "جيش الخلاص" . وتكلم القائد عدتة عن أشياء كثيرة ، وكان يستشهد بآيات عدة من الإنجيل والتوراة ، ويحض على العمل لإنقاذ البائسين واليتامى والمتعطلين والأمهات الفقيرات والمجرمين ، ويذكر ما رآه من أمثلة البؤس في هذا الحى أو ذلك القطر . ومع أن هذا الرجل قد توفي عام ١٩١٢ فإن جيشه لم يضعف بعد وفاته بل نما وقوى ولا يزال إلى الآن سائرا في النمو والقوة .

كان أول ما بدأ به هذا الجيش إغراء الناس بالحياة الصالحة، فكان جنوده يقفون بالقرب من الحانات ، فاذا وجدوا أحدا يقصد إليها أو يخرج منها حاولوه بالحديث وعرضوا عليه المطبوعات التي تبين له خطأ الأسلوب الذي يتبع في حياته، ثم يدعوونه إلى مجتمعاتهم وزيرون له التجند في الجيش . وهو إذا قبل أن يكون جنديا فإنه يشهد باجتساب الخمر والدخان والترام القواعد الصارمة في الأخلاق مثل الاستقامة والزاهة ومعاملة الناس بالحب والمراعاة إلى غير ذلك .

والتفت الجنرال بوث إلى المجرمين . فإن المجرم الذي يقضى عقوبة الحبس أو السجن يخرج وهو شريد طريد لا يعرف كيف يعيش ولا أين يقيم . نخص القائد فرقا عديدة من جيشه يقصد جنودها كل يوم إلى أبواب السجون ويقابلون أولئك الذين أفرج عنهم ،

فيعلمونهم بالرعاية والمطف، ويقدمون لهم المأوى والطعام بل يقدمون ما هو خير من المأوى والطعام في مثل هذه الظروف، وهو الصديق الناصح الذي يعالج أخلاق هذا الشخص الذي لعله يواجه العالم بعد ثلاث أو أربع سنوات قصاها في السجن قد ملأت قلبه حقدا عليه ورغبة في الانتقام منه. وهذا الصديق يعالجه بالدين ويعظه ويحث له عن العمل الذي يستطيع أن يعيش منه. ثم بعد ذلك يتعهد بالزيارة اليومية أو الأسبوعية لكي يقيه من شرور الغواية، بل هو حين يجد أن هذه الغواية توشك أن تسلط عليه يسارع إلى الاستعانة بغيره من الجنود أو الضباط لاتقاده أو — كما يقولون — خلاصه. وأسس الجيش لهذا الغرض ما يسمى "بيوت باب السجن" أي البيوت التي يلجأ إليها من تركوا خلفهم باب السجن. وفي هذه البيوت طعام ومأوى وتجديد للأخلاق. وقد بلغ عددها عام ١٩٢٠ خمسة عشر بيتا دخلها ٢٥٠٠ مجرم سابق. وشمرت المحاكم الانجليزية بالبر السامى الذى يمارسه هذا الجيش فصار كل من تحكم عليه من المجرمين مع وقف التنفيذ يرسل إلى هذا الجيش لمعالجته وإرشاده.

وفي الأحياء الفقيرة تنفث الرذيلة بين النساء، حتى أن الصبيان أنفسهم يقعون فيها، فجعل الجيش إنقاذ النساء والصبيان من مهامه الأولى. ولم يكن يقتصر هنا على النصيحة. لأن النصيحة عند المرأة الساقطة أو النسبى الشريد لا تلقى غير السخرية. ولكنه عمد إلى العمل فأسس البيوت المختلفة لإبواء هؤلاء الضالين. وقد بلغ ما يديره هذا الجيش عام ١٩٢١ من "البيوت الصناعية للنساء" ١١٦ بيتا تجدد فيها المرأة العمل الشريف الذى تكسب منه عيشها دون أن تحتاج إلى ممارسة الرذيلة، وكان له في ذلك العام أيضا ٩٦ بيتا للطفولة المشردة يجد فيها الصبيان والأطفال الطعام والمأوى والتعليم.

ولكن الجنرال بوث كان في كفاحه للرذيلة يرى عدوا قد تمكن من الحصن ورسخ فيه وهو الفقر. فكانت حربه على الفقر حربا شعواء. ولذلك أسس ٣٩ بيتا للأئمة تجدد فيها الأم الخدمة التي تحتاج إليها قبيل الوضع وبعده. كما أسس ٢٨٢ ملجأ ومأوى للعجزة والمحتاجين. بل هو لكي يكافئ التعطل أسس ١٧٣ مصنعا يعمل فيها المتعطلون كل في العمل الذى وفق له، كما أن هذا الجيش العجيب اشترى ٢٢ عذبة كان يرسل إليها بعض المتعطلين الذين يلجأون إليه ولا يحسنون صناعات المدن.

وكان من هذه الحرب التي أعلنها الجنرال بوث على الفقر أنه اشترك عام ١٨٩٠ مع المستر ستيد صاحب مجلة المجلات الانجليزية في استقراء أحوال الفقر في إنجلترا ووصفها، وأخرج الاثنان في ذلك العام كتابا باسم "إنجلترا المظلمة" شرحا فيه ألوان الحرمان التي يعانيها الفقير وأساليب العيش بين الطبقات المنصورة. وارتجت إنجلترا لهذا الكتاب كما لو كانت قد أصابها زلزال. ولم تمض ثلاثة أشهر حتى جمع الجيش من المتبرعين أكثر من مائة ألف جنيه.

وللبش أسلوب في جمع التبرعات هو دعوته من وقت لآخر الى أسبوع إنكار الذات . أى أن المتبرع ينزل عن بعض ألوان الطعام أو الملاهى التى يحب ويتبرع بقيمتها للبش . وقد جمع بهذه الطريقة إلى عام ١٩٢١ مبلغ ١٦٧,٨٤٢ جنيها .

ولكن البش يقوم بنوع من النشاط لا يكافئه مالا ولكنه قد يكافئه عناء أكثر من جمع التبرعات وإنفاقها على الفقراء والمعوذين ذلك أنه يوفد جنوده وضباطه لزيارة البيوت وإصلاح ما بين الزوجين وإغراء أعضاء العائلة بالحياة الصالحة التقية ومجانبة الخمر والتدخين . وقد قام البش إلى عام ١٩٢١ من الزيارات للبيوت لهذه المناسبة بـ ٢٢٥,٢٥٣ زيارة .

*

هكذا عرف رجل الدين بوث كيف يخدم الدين ويطبق تعاليمه وينفع بها الناس .
فكيف نعمل نحن في بلادنا لخدمة الدين وكيف نستفيد من الدين في خدمة المجتمع المصرى ؟

لا يزال أكثرنا يفهم أن كل ما ينبغي أن يعمل في هذا الباب تشييد زوايا ومساجد وكائس تتلى فيها الأدعية وتقام الصلوات ، ولسنا فقراء والحمد لله في عدد المساجد والكائس ، ولا في أماكن العبادة ، وإنما نحن فقراء ، فيما تقتضى به الأديان عامة من التواصى بالحق وبالمرحمة ، ومن مجانبة الخمر والميسر والزنا وشهادة الزور ، ونحن بوفرة عدد رجال الدين بيننا ، أقدر على تجريد "جيش للخلاص" من أوربا التى لا يتشح فيها بوشاح الزعامة الدينية غير رجال الكنيسة .

لدينا الآلاف العديدة من علماء الأزهر وطلابه ، ومن رجال الكائس على اختلاف مذاهبها ، ومن رجال التعليم الإلزامى ، ومن أئمة المساجد وخطبائها ، ومن الوعاظ الرسميين ، ومن مآذونى الشرع الشريف ، ومن رجال الطرق الصوفية المختلفة .

ولدينا عدد عظيم من الجمعيات الخيرية بكميات الشبان المسلمين ، والشبان المسيحيين ، والإخوان المسلمين ، ونشر الفضائل والآداب الإسلامية ، والتعاون على البر الإسلامى ، ومكارم الأخلاق الإسلامية وغيرها مما يزيد عدده على المئات ويزيد أعضاؤه على مئات الألوف ، وكلها تعمل باسم الدين وتدعو إلى أغراض دينية .

ولقد كان الذين اجتمعوا حول "بوث" أول الأمر رجالا قليلين ، فما زال يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى استكثر من الأعوان ، وجمع الأموال ، وبني المنشآت ، ونظم الكائس ، وآوى الشريد ، وهذب المجرم ، ورد إلى الفضيلة جمهرة هائلة ممن شذوا طبعاً أو كادوا يشذون .

أفلا نستطيع نحن بعددنا العديد وقوانا المختلفة أن نؤسس هيئة "جيش الخلاص" على ذلك المثال البديع !

إن اتجاهنا الى الخير صادق لا شك فيه ، وأولئك الدعاة الدينيون منا ، وهذه الجمعيات الخيرية القائمة بيننا ، تقوم بكثير من أعمال البر ، وتخدم كثيرا من أغراض الدنيا والدين ، ولكن جهودها متوزعة غير متعاونة ، ومبراتها فردية غير جماعية ولا شاملة ، وما دام الأمر كذلك فلا خلاص مما نحن فيه ، ومنظّل الدعوة الى الدين وفضائله ضربا من التقاليد لا ينتج الثمرة المرجوة ، ومنظّل لا ينتظر من علماء الدين ومدرسي المدارس والوعاظ والأئمة والخطباء عملا اجتماعيا ، أكثر من القاء الدروس والمواظظ الرسمية في ساعاتها المعينة ، ولا نعرف لرجال الطرق الصوفية عنوانا غير ترديد الصيغة المحفوظة للعهود وحمل البيارق والسير في المواكب ، ولا لجمعيات الخيرية أثر سوى إقامة بعض الحفلات وجمع شيء من المال ، وبذل مقدار قليل من الصدقات ، وإصدار مجموعات من أوراق النصيب .

لسنا نرضى لهذه الطوائف المنتسبة الى الدين ، والقادرة على خدمته وتطبيق تعاليمه وإصلاح المجتمع بواسطتها أن تظل هكذا قوى مبعثرة ، بل نريدها جيشا ملتجا منظما حسن القيادة دائما في العمل ، كما يدأب جنود "بوث" وأعوانه . نريدها جيشا يكافح الرذيلة حيث وجدت ، ويمحي الفقر على الخصوص من أضرار الخمر والميسر والتدخين ، ثم من الفقر نفسه بتسهيل العمل للعاطل ، وصرف المجرم عن الاجرام الى مرتزق شريف ، ويعمل على حماية اليتامى والأرامل والعجزة والبائسين ، ويرشد الآباء والأمهات الى أصول التربية النافعة بايفاد مرسله ومرسلاته الى الأحياء والبيوت من أجل هذا الإرشاد ، وينقذ الساقطات من غوايتهن بمثل ما صنعته "بوث" من إقامة "البيوت الصناعية للنساء" ، ويتوسل الى ذلك بما توسل به ذلك المصلح الديني من مختلف الأسلحة ، وقد شرحنا بما فيه الكفاية .

وليس "جيش الخلاص" بعد نجاح تجربة "بوث" بمشروع محتاج الى مزيد من الفحص أو جديد من التجربة ، بل هو نظام قائم ، وسلطة نافذة ، وقوة عاملة .

وأذكر أن قد ارتفعت في مصر أصوات تنادى بإنشاء "جيش الخلاص" لكنهم خففت بعد حين ، ونحن الآن سائرون الى الإصلاح ، دائماً التفكير فيه ، فليس أنسب من هذا الظرف للتمسك القدوة والأخذ في تكوين "جيش الخلاص" .

توفيق دوس